العمل الخيري و أثره في المجتمع الأندلسي

–النساء أنموذجا–

Charitable work and its impact on Andalusian society
women as a model

دة/ مليكة حميدي*

جامعة علي لونيسي البليدة–2–

hamidi.malika16@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/08/08 تاريخ القبول 2022/09/12 تاريخ النشر 2022/10/13

ملخص.

تشكل المجتمع الأندلسي من فئات متباينة في مستوياتها ومكانتها الاجتماعية و العلمية و تصدرته الفئة الميسورة التي سعت إلى مد يد المساعدة للفقراء والمحتاجين ضمانا للتكفل الاجتماعي. و من ذوي الخير و الإحسان اشتهرت بعض النساء ذوي النفوذ السياسي رغم أن البعض منهن تورطهن في قضايا عامة أساءت لسمعتهن و غفلت عن ذكر إحسانهن. و لذا تهدف هذه الدراسة إلى إبراز العمل الخيري المشرف لنماذج من نساء الأندلس و انعكاس نتائجه على الصالح العام في شتى الجوانب الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية وما بذلنه من صداقات و انجاز مشاريع الاجتماعية و علمية و وقفها على المنفعة العامة.

الكلمات المفتاحية: الأندلس ؛الخير؛ النساء، الوقف،المسجد.

Abstract:

---

* المؤلف المراسل

Andalusian society is made up of different groups in their levels and social and scientific status, and it is headed by the affluent group that sought to extend a helping hand to the poor and the needy in order to ensure social support. Among the benevolent and charitable, some women with political influence became famous, although some of them were involved in public issues that harmed their reputation and neglected to mention their kindness. Therefore, this study aims to highlight the honorable charitable work of models of Andalusian women and the reflection of its results on the public interest.

key words: Andalusia ،charity, women ، endowment، The mosque.

مقدّمة:

من مظاهر التآزر و التكافل الاجتماعي عمل الخير من ذوي البر و الإحسان لا سيما و أن ديننا الحنيف يحث على مساعدة المحتاج و تفريج الكرب . و يرقى فعل الخيري بقدر نية و إخلاص و تقوى صاحبه لقوله صلى الله عليه و سلم :"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه.".و يضم الفعل الخيري عدة جوانب كالصدقة و الهبة و أكثرها نفعا و استمرارية هو الوقف أو الحبس الصدقة الجارية الذي ساهم فيه المسلمون ذوي الثروات و من بينهم فئة النساء الميسورات.

تنوع إسهام الأندلسيات في فعل الخير توافقا و مكانتهن الاجتماعية و قوتهن الإيمانية و رجاؤهن الثواب الحسن من الله عزّ وجلّ إذ ذكرت المصادر التاريخية نماذج للنفوذ النسوي السياسي لحريم بني أمية وكذلك في عهد ملوك الطرائف و تميزها بطابع التنافس على الارتقاء الاجتماعي و الحظوة لدى الحكام و الأمراء مما نتج عنه بعض الجوانب السلبية في تصرفاتهن لازم البعض منهن مثل الجارية صبح أم ولد الخليفة الحَكَم المستنصر. وكذا تصرف الجارية اعتماد الرميكية في الترف الفاحش و التبذير كان أشد خطرا على سمعة مملكة بني عباد بإشبيلية؛ لكن في المقابل احتوت نفوس النساء بذور الخير و الصدقة الجارية للمنفعة العامة كما تشهد عليهن المصادر التاريخية و بعض شواهد الكتابات الأثرية المتبقية لحد الآن.

الإشكالية: اشتهرت السيدات الأندلسيات بميولهن إلى الترف و البذخ و العيش الرغد لما امتلكته من ثروات لكن بالمقابل سعين في العمل الخيري مساعدة وعطفا على المحتاجين و الصالح العام من إسدال الصداقات و وقف الأملاك النفعية. و لذا نتساءل عن:–ماهية فعل الخير و الوقف– ما دوافع النساء للعمل الخيري و الوقفي – ما هي مصادر الثروة المالية الموقوفة؟ – فيما تمثلت مجالات فعل الخير مع –إبراز نماذج للنساء الخيرات و المحسنات — وما أثر عمل البر و الخير على المجتمع الأندلسي؟.

. 1.مفاهيم ومصطلحات

1.1 الخير :الاصطلاح لغوي

– الخير ضد الشر و جمعه خيور و يستعمل استعمال اسم التفضيل فيقال: هذا خير من هذا أي أكثر خيرية وإذا أرادت إبراز معنى التفضيل قلت (فلان خيرة الناس)، فلانة الخيرة من المرأتين، و هي الخَيِّرَةُ و الخَيِرَةُ و الخِوْرَى و الخِيرَة [1] والخير فيما عدا التفضيل هو كل ما تعتبره النفس لائقا بالكمال و الفضيلة و له معاني شتى يحددها السياق:

1. 2– **الاصطلاح القرآني**: و رد لفظ الخير في الكثير من الآيات القرآنية و السياقات مما جعله متنوع الدلالات. بحسب موقعه في الجملة .بلغت دلالته السياقية نحو العشرين معنى منها : النافع و الصلاح و الإصلاح و الإيمان و الأجر و الوقف أو الحبس، الصدقة، البر ،الإحسان... ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [2]

3.1. الاصطلاح الفلسفي

الخير عند الفلاسفة القدماء هو كمال الوجود و الشر هو عدم حصول هذا الكمال.و قسموا الخير إلى قسمين خير مطلق و خير نسبي.[3]

4/1. **الوقف:** الوقف أو الحبس جزء من عمل الخير الإحسان ألا انه مقيد بضوابط شرعية لأن الوقف في الشريعة الإسلامية صدقة محرمة، لا تباع ولا تشترى ولا توهب ولا تورث، ويصرف ريعها إلى جهة من جهات البر.[4] و ينقسم الوقف بالنظر إلى الجهة الموقوف عليها إلى ثلاثة أقسام:

-1.**4**/1 **وقف خيري:** وهو الذي يوقف على أعمال الخير المتنوعة من بناء المساجد والمدارس ودعم حلقات تحفيظ القرآن الكريم ومساعدة الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وغير ذلك . وهذا النوع من الوقف هو الأكثر شهرة وأهمية. [5]

4/1 .2- **وقف أهلي أو ذرّي:** تطالعنا الكتب الفقهية على كثير من نماذجه و يقصد به ما يقفه الإنسان على أهله وذريته، أو على أناس آخرين مُعَّينين .

ويدعى كذلك بالوقف المعقب، وهو من أول أنواع الأوقاف التي انتشرت بين المسلمين، حيث يخصص الواقف جزءا من ثروته لعقبه مثل أولاده أو أحفاده أو زوجته أو أحدا من أقاربه .

4/1. 3- **وقف مشترك:** وهو أن يقف على جهتين مختلفين، مثل: أن يقف عقارا على أولاده وعلى المساكين، بينهم إنصافا أو بحسب ما يراه.

بالإضافة إلى هذه التقسيمات، هناك ما يعرف بالوقف المؤبد والوقف المؤقت، فالوقف المؤبد يخص الأراضي القابلة للاستغلال لصالح جهة معينة مثل منية الجارية عجب و حقول الجارية مرجان. والوقف المؤقت هو وقف الثروات الأخرى من غير الأرض من دور وحوانيت وأموال أخرى، فلا يمكن فيها التأبيد إلا بشرط تخصيص جزء من ريع الأوقاف لصيانتها حتى تستطيع الاستمرار في النشاط.[6]

2 / دوافع العمل الخيري و الوقفي

بحثا عن سبب اهتمام النساء بالعمل الخيري و بذل لثرواتهن التي طالما كنزنها لأوقات الشدة؛ وقفنا على تضافر عدة عوامل منها النفسية بالدرجة الأولى والمتعلقة

بالجانب الديني و مدى إيمانيات الفرد، و عوامل اجتماعية و أخرى اقتصادية، نحاول نذكر البعض منها:

1/2 الدافع الديني

سعت المرأة المسلمة على الإنفاق في البر و الإحسان ، لأن الإسلام حثّ عليه ، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿لَنْ تنالوا البِرَّ حَتىَّ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾.[7] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ﴾ [8] كما حث الرسول الكريم صلى الله عليه و سلّم على الصدقة بقوله:« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[9] والغاية من الصدقة سواء أكان واجبا أو تطوعا،هو إيجاد توازن اجتماعي يقرب بين أفراد الأسرة من جهة و بين أفراد المجتمع أغنياءهم و فقرائهم من جهة أخرى.

و قد ساهمت النساء في كلتا الحالتين في حدود إمكاناتها و قدرتها المادية والمعنوية . فعلى مستوى نساء الخاصة نلاحظ عطف المرأة سواء كانت أما أو أختا أو زوجة على ذويها. و منها امرأة حبست على ابنة صغيرة دارها التي تسكن فيها. و جعلت قبض ذلك إلى زوجها والد الصبية... كما تصدقت الأم على البنت بمائة مثقال . دينار من الذهب– و وهب الأب لابنته قبل وفاته حُلّيا وثيابا.[10] وهبت أختا لأخيها مالا معتبرا؛ و امرأة أخرى تحملت نفقة أخيها مدة حياته و امرأة أخرى تصدقت على زوجها بثلث مالها،و رجل اشترى بمال زوجته دارا.[11]

2/2 . الدافع النفسي

2/ 1 المرض و المشاكل الأسرية :

إن التداوي بالصدقة أمر شرعي حثنا عليه الرسول صلى الله عليه و سلّم و يعتبر المرض احد العوامل الأساسية المؤثرة في نفسية النساء و الإحساس بآلام الآخرين المعوزين الذين يحتاجون المساعدة و هم يكابدون الألم، فإذا أصيبت المرأة بمرض

ازدادت رأفة و حنانا و صدقة على المحتاجين من المساكين أو المرضى و شفقة خاصة على المرضى. و كسبيل المثال تطلعنا كتب الفتاوى أن امرأة أمتعت زوجها كل أملاكها، لكن لما مرضت عدلت عن ذلك و تصدقت بثلث أملاكها للمساكين.[12]

3/2. الثراء المادي

تمتعت كثير من نساء الخاصة بثروة مالية طائلة اكتسبتها من ذويها في معظم الأحوال بواسطة الإرث أو الهبة أو الهدية أو باستثمار أملاكهن لان معظم حكام الأندلس أولوا عناية خاصة بجواريهم و أمهات الأولاد فخصهن بهدايا و أموال ضخمة للتصرف الخاص. لكن المرأة الصالحة و التقية أنفقت معظم ثرواتها في أعمال البر و الخير و منها الحبس الذي يعد صدقة جارية تنفعها بعد موتها و بفضل أعمال الخير اتسعت دائرة الانتفاع بها على كل مستويات المجتمع الأندلسي.

و لذلك تطالعنا المصادر التاريخية أخبارا عن نساء الحكام و الأمراء و من أمهات الأولاد و الأميرات اللاتي أوقفن أموالا طائلة على الصالح العام بإسهامهن في أعمال البر و الإحسان لا سيما إذا وضعت الجارية المحظية ولد ليكون ولي العهد فتتضاعف ممتلكاتها كما يتبين ذلك من خلال هذه الدراسة.

3/مجالات العمل الخيري و الوقفي

إن التكوين البشري المجتمع الأندلسي و اختلاف شرائحه و مستويات معيشتهم ظهرت ملامحه جليا خاصة من خلال ما أوردته المصادر التاريخية و الفقهية و كتب التراجم التي عالجت جوانب من الحياة الاجتماعية و العلمية والاقتصادية و أشادت بثلة من النساء المحسنات اللاتي نسلط عليهن الضوء من خلال هذا المبحث مستعينين ببعض نتائج بحث علم الآثار؛ و فما مدى تفاعلهن مع متطلبات المجتمع و تلبية حاجاته في مختلف المجالات الحياتية بالانجازات الضرورية كالمساجد و المدارس و توفير ضروريات الحياة كتسبيل الماء و وقف الحقول لتوفير المحاصيل الغذائية

1./3 العمل الخيري في المجال الاجتماعي العام :

1.1/ 3 : بناء المساجد

اشتهر في البلاط الأموي، أسماء نساء تنافسن بينهن على بناء المساجد و أعمال الخير الذي بلغ أشده ، نظرا للمكانة الكبيرة للمسجد في حياة المسلمين. فهو المكان الذي يؤدون فيه عبادتهم و يتلقون فيه دينهم ، و فيه يتقاضون و يتعلمون ويجتمعون و يتشاورون في أمورهم ، فهو بحق في قلب كل مسلم و هو أيضا قلب المدينة المسلمة لا في موقعه فقط ، بل في دفعه و مهمته. و يندرج هذا العمل الخيري في باب الصدقة الجارية في حياة الفرد و الباقي بعد موته.

و من الانجازات في هذا المجال نذكر مسجد مُتعة جارية كانت عند الأمير الحَكم الأول و مسجد الجارية عجب، [13] و يقول ابن سعيد عن أبي المطرف عبد الرحمان بن الحَكم ، (حكم ما بين 206هـ – 238هـ /821م-852م) " و تولع جواريه ببناء المساجد و فعل الخير". [14] و من جواريه ما قدمته الجارية الشفاء من أعمال جليلة ، و يقال أنها كانت من أجمل النساء عقلا و دينا و فضلا. و عدت من أكثر نسائه وقفا على المساجد، و إليها ينسب المسجد الذي في الربض الغربي من قرطبة. و كان الأمير عبد الرحمان الأوسط يحملها معه في بعض غزواته لأجل مرضها.[15] و ربما كان مرضها هو الدافع لكثرة عملها الخيري و شفقة الأمير عبد الرحمان الأوسط عليها.

و في إحدى غزواته وافتها المنية بفج البشرى من حوز طليطلة، فدفنت هناك و صار قبرها معروفا بالمنطقة. و كانت الشفاء فيما مضى كفلت الأمير محمّد بن عبد الرحمان في صغره لما توفيت أمّه. و لما أصبح الأمير محمّد حاكم الدولة الأموية بعد وفاة أبيه ، حاول رد بعض جميلها له فحرر سكان القرية التي دفنت فيها مربيته الشفاء

من المغارم جزاء لهم لصيانتهم قبر "الشفاء"و تجديدهم لرسمه.[16] و هكذا يبقى فضل "الشفاء و إحسانها جاريا حتى بعد موتها .

أما جاريته "طروب" فينسب إليها المسجد بقصر الربض الغربي و لها آثار سواه و جاريته فخر[17] لها مسجد رفيع على أمهات المساجد بقرطبة.[18] و أم سلمة ذكرت في سياق التوسيع العمراني و ورد عن المقري أن قرطبة شملت عند انتهائها في التوسع والعمارة إلى واحد و عشرون ربضا منها ربض مسجد "أم سلمة".[19]

و الأميرة "البهاء" ابنة الأمير عبد الرحمان الأوسط، كانت خيرة زاهدة متبتلة شديدة الرغبة في الخير و إليها ينسب المسجد الذي بربض الرصافة، وتوفيت في (رجب سنة 305هـ /ديسمبر 917 م) لأول دولة الناصر فلم يتخلف أحد عن جنازتها لصلاحها و مكانتها لدى العامة.[20] و من أعمال البر للجارية مرجان و هي أم ولد الخليفة عبد الرحمان الثالث –الناصر–، و ما أورده ابن حيان في فضلها: " و من آثارها كان المسجد الأكبر المنسوب إلى السيدة بالربض الغربي. وكان أوسع مساجد قرطبة بناء وأحسنها عمارة ، يتكفل بمصالحه و أحواضه و سدنته ، و غاشي وفوده عليه، من كل الأنحاء [21]

و من مزايا الجارية مشتاق أم ولد الخليفة عبد الرحمان الناصر –و هي أم ابنه المغيرة–، تجديد جدران مسجد بقرطبة ، و أضافت بناء مقصورة للصلاة خاصة بالنساء. و من شواهد على ذلك ما عثر من بقايا نص أثري مسجل فيه ما يلي: " بسمله ... و لا حول و لا قوة إلا بالله العظيم أمرت السيدة مشتاق أم الأخ المغيرة بعمل هذا المنار المنضمة له و تجديد طُرر هذا المسجد فتم بعون الله على يدي جعفر بن عبد الرحمان فتاها في شهر رمضان ... – ن و ثلاث مائة." و تم هذا الإنجاز بأموالها الخاصة ، ما بين سنتي(350 هـ و 366هـ /961م–976م). و بناء على هذا التأريخ يفترض إتمام المسجد في عهد الخليفة الحَكَم المستنصر بالله.

[22] و يضاف إلى هذه المجموعة من المساجد ،مسجد "أم هشام.[23] **و** مسجد السيدة إعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد حاكم مملكة إشبيلة التي ورطته في أزمة مالية لكثرة نفقاتها وترفها حتى استدعى الأمر بقضاة و أعيان قرطبة مراسلة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين و لنجدتهن و دفع الخطر الإسباني عن ممتلكات المسلمين الأندلس.

و مع تطور السياسي الخطير لملوك الطوئف و اشتداد الغزو النصراني تم القضاء على الطوئف نهائيا من طرف المرابطين و نفي اعتماد الرميكية رفقة المعتمد بن عباد إلى أغمات بالمغرب.لكن يبقى أثر عمل الخير شاهدا عليها من خلال الكتابة الأثرية المتبقية في أحد مساجد إشبيلية على صومعة المسجد التي أمرت ببنائها ، حيث يحتفظ نص اللائحة على ما يلي :

" بسمله...و صلى الله على محمّد خاتم النبيين .أمرت السيدة أم الرشيد أبي الحسين عبيد الله بن المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله تأييده و أمره وإعزازها بإقامة هذه الصومعة بمسجدها صانه الله.

(lisez :) طلبا لجزيل الثواب فتمت بعون الله على يدي الوزير الكاتب الأمين أبي القاسم بن حجاج وفقه الله . و ذلك في شعبان من عام ثمانية و سبعين و أربع مائة (478هـ/1085م).[24]

رغم أنه لم يذكر اسم إعتماد لكنها نسبت إلى ابنها الرشيد و لقبت بالسيدة الكبرى في بعض المصادر العربية.[25] وكانت نفقات مساجد اشبيلية و منها مسجد السيدة تعتمد على الأحباس. ويشيد العذري " بجامع إشبيلية ... و أن صومعته من أتقن الصوامع وأبدعها عملا و ألطفها صنعا معقودة.[26] ولا يفوتني ذكر بعض أعمال نساء الخاصة منهن " شعاع" و هي جارية قاسم بن أصبغ ، من قرطبة التي كانت صالحة و لها مسجد بربض الرصافة من قرطبة.[27] أما أخت القاضي منذر بن سعيد البلوطي نظيرة أم الحسن ، كانت مقيمة بفحص البلوط **و** كان لها

مسجد بجوار ببيتها و يقصدها عجائز ناحيتها و نسائهم الصالحات للذكر و التفقه في الدين و الدراسة.[28] نخلص مما سبق ذكره أن جملة المساجد الموقوفة من طرف النساء بلغت اثنا عشر مسجدا و معظمهن من فئة الجواري.

3 / 1. 2 :مساعدة المرضى

و لا تقل الأحباس ذات الطابع الاجتماعي أهمية عن ما سبق ذكره لاسيما الأحباس المخصصة للصالح العام ، مثل الأحباس المخصصة للمرضى التي تستعمل في توفير الموارد الكافية لعزل العلل المعدية و تعميم مداواة و تدبير الصحة. و برعت في هذا النوع من الأحباس الجارية " الشفاء" التي وقفت أموالا معتبرة على المرضى والضعفاء.[29]

1/3. 3فك الرقاب و الأسرى

من الأعمال البرّ فك الرقبة أي تحرير العبيد : قال تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم:" ﴿فَكُّ رَقَبَة ﴾.[30] تقربا لله تعالى أو تكفيرا للذنوب أو جزاء للعبد على الخدمة و الوفاء ، و من ذلك أن السيدة "صبح"حررت الفتى ""ميسور" وأصبح يسمى "الجعفري" نسبة لها.[31] و يبدو أن المسلمين كانوا أكثر حرصا على فك أسراهم من النصارى حيث ازداد حجم الأوقاف الموجهة لفداء الأسرى الذين وقعوا في قبضة النصارى بدار الحرب،و هي من القضايا التي أصبحت من الظواهر المؤلمة.[32]

و من شهيرات النساء اللائي بذلن أموالهن في فك الأسرى من قبضة النصارى ، منهن سيدة بنت عبد الغني بن علي بن عثمان العبدري، من أهل غرناطة، و التي تعرف بأم العلاء قيل عنها أنها لم تزل قائمة على السعي في الخيرات والتوفر على أعمال البر والإيثار بما تملك وفك الرقاب من الأسر وغير ذلك من أعمال البرّ المذكورة، وتوفيت على تلك الحال [33] كما سعى الخليفة الناصر فك الأسرى بمال إحدى جواريه التي توفيت و تركت أموالا معتبرة وفاء لها .[34]

ويتبين لنا من نماذج النساء السالفة الذكر أن إسهام النساء في هذا العمل الخيري كان منتشرا ومرغوب فيه بين مختلف فئات المجتمع رجالا و نساء على نطاق واسع.

3/ 1 .4 وقف مقابر النساء

عرفت الأندلسيون منذ الفتح الاسلامي تحديد أماكن تكون مقبرة للمسلمين؛ و يمكن أن تتقارب مقبرة المسلمين مع مقبرة أخرى لأهل الذمة . و المقابر عادة ما تكون خارج المدينة أو خارج أسوارها بجوار أحد أبوابها . و قد خلد التاريخ مقابر المسلمين "بأسماء نساء أندلسيات و منها:

مقبرة أم سلمة: سميت هذه المقبرة على اسم أميرة تقية و هي ابنة خالة و زوجة الأمير محمد الأول و كانت من أوسع مقابر قرطبة ، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق ، واقعة في شمال المدينة بربض مسجد أم سلامة . وكان موضعها في الجهة المقابلة لباب اليهود أو باب لُيُون.[35]

مقبرة مُتعة: تنسب إلى اسم جارية كانت عند لأمير الحَكم الأول . و هي التي تحملت نفقات إنشاء المقبرة و بناء مسجد . و كانت توجد بالقرب منها مقبرة المستعربين ، التي صدرت في حقها فتوى من ابن سهل ،تمنع المستعربين، من دفن موتاهم هناك ،جوابا على الشكاية التي رفعها ضدهم المحتسب ،لأنهم كانوا يقتحمون مقبرة المسلمين بالعربات التي كانت تحمل جثمان موتاهم لدفنها في مقبرتهم النصرانية. ومقبرة مُعمَّرة إحدى جواري عبد الرحمان الثاني أنشئت على نفقتها ، و قد دفن فيها سنة 361هـ/ 971م الخُشني ،صاحب كتاب " تاريخ قضاة قرطبة".[36]

2/3العمل الخيري في المجال الاقتصادي:

و من الأعمال الخيرية في المجال الاقتصادي ما وقفته نساء البلاط على الصالح العام مثل الجارية مرجان السالفة الذكر ، وقفت حقولا عرفت بحقول السيدة " مرجان "

الواسعة و الوفيرة الغلة بقرطبة ، و منها أيضا بمقبرة الربض. و هذه التربة الموقوفة كانت حصينة الأبواب منيعة الأسوار،مستمر الإنفاق عليه و على غيره من وافي غلتها مر السنين". و بداخل هذه الحقول تحصن القاضي محمد بن زرب لما ثارت عليه العامة.كما تركت مرجان وصية لابنها وليّ العهد تمثلت في مبالغ مالية عظيمة سبلتها في وجوه زكية من أبواب البر.[37] إن الحقول العظيمة التي أصبحت تملكها مرجان ، بعد أن أصبحت أم ولد بولادتها ولي العهد الحَكَم ، تدخل ضمن ما كان يقطعه الخليفة لأفراد الأسرة الحاكمة ، و هي من نوع الإقطاعات المدنية.[38] و يضاف أيضا منية أم سلمة غربي احد أركان قرطبة الوفيرة الغلة.[39]

3/3تسبيل الماء

يعد الماء عصب الحياة قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ الماءِ كلّ شيءٍ حيٍّ ﴾[40] و نظرا لأهمية الماء و دوره في حياة الإنسان ، فقد اقترن انتشار السقاية بالوقف،[41] خاصة في محيط المساجد .و قد تقترن ثقافة الماء لدى الخاصة من أمراء و حاشيتهم و غيرهم من علية المجتمع الأندلسي بتجهيز القصور والمتجمعات بمنشآت مائية تعبر عن الترف أكثر من الحاجة المادية اليومية وضرورة الماء ، أضف إلى ذلك أثر الماء بين التضامن و النزاعات في المجتمع الأندلسي،[42] هذه الأمور و غيرها لفتت اهتمام بعض النساء في التطوع بتوفير الماء للصالح العام، و من نساء الخاصة التي ساهمت في هذا الميدان السيدة " صبح " أم الخليفة هشام المؤيد التي أمرت ببناء ساقية . و يتضح هذا الخبر أكثر من خلال الأبحاث الأثرية الحديثة التي أجريت في منطقة من إشبيلية حيث عثر على نص أثري يدل على ذلك و يعرفنا به الباحث ليفي بروفنسال بما يلي: " بسمله... أمرت ببنيان هذه السقاية السيدة أعزها الله الوالدة أم أمير المؤمنين المؤيد بالله هشام بن الحَكم أطال الله بقاه رجا منها ثواب الله الجزيل أجره العظيم .فتمت بعون الله و تأييده على يدي صنيعتها صاحب الشرطة و

قاضي أهل كور "إستيجة" و" قرمونة" و أعمالها أحمد بن عبد الله بن موسى و ذلك في شهر ربيع الآخر سنة سبع و ستين و ثلث مائة 367هـ." – وما يوافق سنة 977م. –و هذا النص من 11 عشر سطرا مكتوبا بالخط الكوفي على قطعة من الرخام الأبيض ، موجود حاليا بالجدار الخارجي لساحة كنيسة سنتا كروز بإستجة.[43]

3/3 العمل الخيري في المجال العلمي

إضافة لما سبق ذكره فقد ساهمت المرأة بجملة من الأعمال الخيرية الأخرى منها نسخ و حبس أو وقف الكتب لتعم الفائدة و ينتفع المسلمون بالعلم . مثل الأميرة البهاء التي كانت تكتب المصاحف و تحبسها. و في إحدى أرباض قرطبة وجد 170 امرأة ينسخن الكتب استرزاقا و صدقة[44]

و نلاحظ في الأخير مدى تخليد التراث الأندلسي للعمل الخيري النسوي من خلال ما حفظته بعض المصادر المتنوعة التاريخية و الفقهية و الأدبية و الآثار المادية.

خاتمة:

رغم اختلاف المجتمع الأندلس في أجناسه و ميولا تهم و طبقاته الاجتماعية المتفاوتة، فإنه تميز بالحفاظ على بنيته التحتية ، و بالتآخي و التآزر في الظروف الصعبة و الطارئة ضمانا لتمسكه بأحكام الشريعة الإسلامية الحاثة على التسابق في فعل الخيرات. و لا غرابة في مبادرة النساء الأندلسيات بتقديم ألوان من المساعدات سواء للفقراء أو للمرضى أو لفك الأسرى، و بالتالي تركت النساء الميسورات بصمتها واضحة في الميدان الخيري لا سيما في الجانب الاجتماعي و العمارة الدينية بالأخص بناء المساجد و صيانتها و حبس أوقافا عينية على وارديها من الطلبة أملا في ترك صدقة جارية تحفظ أثرهن .

تبين من مما سبق أن العمل الخيري في بلاد الأندلس مس مختلف الجوانب الحياتية و الاستفادة منه شملت شريحة واسعة من المجتمع ؛تتصدر مجالات الأوقاف العناية

بالمساجد سواء ببنائها أو تجديدها و توسيعها أو بخدمتها أو تسبيل المرافق لها في مقدمتها الماء و الاعتناء بطلبتها،فكان لها الأثر البالغ في خدمة العلم و العلماء ؛لأن المسجد لم يكن مقتصرا على العبادة بل كان ملاذ للمحتاجين و مركز للإشعاع الفكري مما ساهم على توسيع دائرة انتشار العلوم بين الذكور و الإناث و بروز عددا من علماء في مختلف العلوم النقلية و العقلية.

ولا يقل الجانب الاقتصادي أهمية عن سابقه أنما وقف الحقول و المنيات المجاورة للمساجد كانت تعود مداخليها و فوائدها على طلبة العلم بالدرجة الأولى ثم على الفقراء و المحتجين؛إضافة إلى الوقف العلمي للمصاحف و الكتب الفقيهة و العلمية الموقوفة في مكتبات المساجد.

ونلمس وعي نساء الأندلس بالظروف السياسية الحرجة التي مرت بها الأندلس إثر هجوم النصارى على الممتلكات الإسلامية خاصة في شمال البلاد أي في منطقة الثغور و ما نتج عنها من تدمير و أسر و سبي للمسلمين و ما يقابله من وقف بعض النساء لأموالهن لفك الأسرى من قبضة العدو الإسباني النصراني حفاظا على كرامة المسلمين.

و تبقى بعض البقايا الأثرية المادية رغم مرور الزمن ماثلة لحد الساعة كشواهد تاريخية على مكانة الوقف في الحضارة الأندلس الراقية و مادة علمية للباحثين في العلوم الإنسانية. وهكذا يتواصل روح العمل الخيري جيلا بعد جيل و خلفا عن سلف طول الحكم الإسلامي للأندلس و في المجتمعات الإسلامية إلى يومنا محافظا على مجتمع متكافل في السراء و الضراء من جهة و رغبة في نيل رضا الله و ثواب الآخرة من جهة أخرى.

أما نماذج النساء المذكورة في الدراسة فما هي إلا عينات فقط لنساء من الخاصة صالحات و خيرات و لا شك أن غيرهن من العامة كثيرات لم تسعهن أقلام المؤرخين

ساهمن في الخير على مدى وجود الدولة الإسلام في الأندلس ،لأن التنافس في أعمال البر و الإحسان و الحبس كان منقطع النظير في المجتمعات الإسلامية عامة .

الهوامش

[1] ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد): لسان العرب ، ج15، ،تحقيق عبد الله الكبير و آخرون ،، دار المعارف ،القاهرة، ، 1401هـ/ 1981م ،ص، 1298 ، 1299

[2] سورة آل عمران: الآية 104

[3] الكتاني محمّد ، موسوعة المصطلح العربي الديني و العلمي و الأدبي ، ج 1 ، دار الثقافة للنشر و التوزيع،، الدار البيضاء ،2014، ص970 ،971

[4] (ابن منظور، المصدر السابق ،مج 55 ، ص4998 .

[5] الونشريسي ، المعيار المعرب و الجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب ، مج 7، مخرجه عبد الرحمان حجي ، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المملكة المغربية، 1401هـ/1981،ص 226،186،165، 355.

[6] ، الونشريسي نفس المصدر، ص 248، 267، 269

[7] سورة آل عمران: الآية 91

[8] سورة البقرة: الآية 267

[9] مسلم بن الحجاج القشيري: مختصر صحيح مسلم، اختصره ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، د.ط، بيروت،1419هـ-1998م، [باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد موته]، حديث رقم 1866،ص342

[10] . (ابن بشتغير،نوازل، دراسة و تحقيق و تعليق قطب الريسوني، بيروت، ط 1،دار ابن حزم،1429هـ/ 2008م، ص196.

[11] ابن بشتغير، نفس المصدر .ص،247

[12] ابن رشد ، أبو الوليد ، فتاوى ابن رشد، 3 أسفار، تحقيق المختار بن طاهر التليلي، ، ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1407هـ/ 1987م ، ص 1043، ؛ابن بشتغير، المصدر السابق، ص197

[13] ابن سهل، أبي الأصبغ عيسى ، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام و قطر من سير الحكام، تحقيق يحي مراد ، ، دار الحديث، القاهرة ، 1428. 2007م ،ص 623.

[14] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب،ج1، تحقيق شوقي الضيف ،دار المعارف، القاهرة ،(دت)، ص 41.

[15] ابن حيان ابو مروان، المقتبس في انباء اهل الأندلس، تح محمود مكي، ،ط2 ،دار صادر، 1390هـ/ 1970 ،ص247

[16] ابن القوطية،تاريخ افتتاح الأندلس ، تح عبد الله أني بيروت س، ،(دت)، ص 117

[17] ابن الأبار (أبو عبد الله) ، الحلة السيراء ،ج1،تحقيق حسين مؤنس ، ج1،ط 2،دار المعارف ، القاهرة،1985، ص 114؛ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب و في أخبار المغرب الأندلس،مج 2، تحقيق ج . س. كولان و ليفي برزفنسال، ط 5، دار الثقافة، بيروت ،1418ه/ 1998م، ص 92 .

[18] Provençal E.Levi , Histoire de l' Espagne Musulmane , Paris, maisonneuve &Larose, p15, t3 ,1999.

منجد مصطفى ، أعلام نساء الأندلس مستلة من كتاب التكملة لابن الأبار ، مجاة المورد، بغداد، مج19،عدد1، 1990، رقم 9، ص 109.

[19] المقري ، نفح الطيب ،ج 1، المقري (شهاب الدين احمد ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ط 2 ، تحقيق إحسان عباس،دار صادر، بيروت ، 1997، ص 463

[20] ابن عبد الملك المراكشي، (أبو عبد الله بن محمّد) ، كتاب الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة، السفر 8،ق 1، تقديم و تحقيق و تعليق محمّد بن شريفه ،مطبعة المعارف الجديدة، ، الرباط ، 1984، السفر8، ص 484. منجد مصطفى، المرجع السابق ، ص 113.

[21] ابن حيان، أبو مروان، المقتبس في أنباء أهل الأندلس،ج 5، المعهد الاسباني العربي الثقافي، كلية الآداب،، مدريد ، الرباط 1979ص13 ؛ النباهي أبو الحسن ، تاريخ قضاة الأندلس، ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، ط5، دار الآفاق الجديدة ،،140 بيروت، 3ه/1983م، ص 79 .)

[22] Provençal Levi, Inscriptions arabes d'Espagne ,E,J,Brill Leyden- Hollande, et imprimerie orientalisme, Larose, paris, 1931 , p 26,27p 24 .26(

[23] ابن سهل ، المصدر السايق ، ص 623.

[24] (Provençal : inscriptions arabes, n° 32,P 40)

[25]

[26] العذري أحمد ، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيغ الأخبار و تنويع الآثار ،تحقيق عبد العزيز الأهواني، ،منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ،1418ه/ 1998 ،ص 9؛ الطاهري أحمد ، الفلاحة و العمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، من نظام التشمير التعاقدي إلى نمط الانزال الاقطاعي،، ، مركز الإسكندرية للكتاب ،الإسكندرية ،2004 ص75.

[27] ابن عبد الملك المراكشي، الذيل و التكملة ، سفر 8، ق 2 ، رقم 262، ص488. منجد مصطفى بهجت ، المرجع السابق، رقم 65، ص 123

[28] (منجد مصطفى ، نفس المرجع ، ص 114.

[29] ابن حيان ،المقتبس ،تح مكي ،ص 249

[30] سورة البلد: الآية 13

[31] . عمر مصطفى لطفي ، تاريخ الصقالبة في الأندلس، ط1، مركز البرنس للطباعة،(دم ط) ، 1433ه/ 2003 م ،ص47.

[32] الونشريسي ابوالعباس، المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس و المغرب،خرجه جماعة من الفقهاء باشتراك محمّد الحجي، الرباط ،نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، بيروت ،،ج 7 دار الغرب الإسلامي، 1401ه/ 1981 ، ص 140 ؛ أحمد الطاهري، المرجع السابق، ص 78.

[33] ابن عبد الملك، الذيل و التكملة، سفر8،ق2، رقم 261 ، ص 487، 488.؛ منجد مصطفى، المرجع السابق، رقم 63، ص 123.

[34] المقري (شهاب الدين أحمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 8 مج ، تحقيق إحسان عباس، ،دار صادر ، ط 2، بيروت ،1997 ،ص 423)

[35]ابن بسام، الذخيرة،مج1،ص369

[36] ابن سهل ، الأحكام الكبرى،ص 626 ،627، طريس بلباس، الحواضر الاندلسية، ج1، ص 414

[37] ابن حيان، المقتبس،ج 5، ص13 ؛ النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس، ص 79.

[38] الجنحاني الحبيب، الحياة الاقتصادية من خلال المقتبس، 1404ه/ 1984،مجلة المناهل ، عدد 29 سنة 11، ص 346.

[39] . العذري، نصوص عن الأندلس ، ص 122؛ ابن سهل ، ال مصدر السابق ، ص681.)

[40] سورة الحج،الآية 30

[41] سعيد بنحمادة ، الماء و الإنسان في الأندلس ،خلال القرنين 7-8ه /13- 14 م دار الطليعة ،بيروت، 2007، ص 64، 70 ،121، 125)الونشريسي، المعيار ،ج 6 ،98.

[42] سعيد بنحمادة ، المرجع السابق، ص 64، 70 ،121، 125

[43] Provençal : inscriptions arabes, n ،30 °p 37 .

[44] ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق، السفر8، ق2، ص484، 499،498؛ منجد مصطفى ، المرجع السابق، رقم 22، ص 113.